الدلالة السياقية وأثرها في فهم النص الديني قراءة في كتاب (مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول) للعلَّامة المجلسي(١١١١هـ)

الاستاذ الدكتور

رجاء عجيل إبراهيم الحسناوي

جامعة كربلاء - كلية التربية للعلوم الإنسانية

dhrgamali52@yahoo.com

المدرس المساعد

مقداد علي مسلم العميدي

المديرية العامة للتربية في محافظة النجف الأشرف

alameedee_alameedee@yahoo.com

Contextual significance and its impact on the understanding of the religious text Reading in the book (Mirror of minds in explaining the news of the Prophet's family) of the mark Majlis (1111 e)

Prof. Dr
Raja Ajeel Ibrahim Hasnawi
Karbala University - College of Education for Humanities
dhrgamali52@yahoo.com
Assistant Lec.
Mekdad Ali Muslim Amidi
Directorate General of Education in the province of Najaf
alameedee_alameedee@yahoo.com

الخلاصة:

شكّلت أقوال النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين(عليهم السلام) وأخبارهم المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ولا سيما عند الإمامية، فلا يتقدمها إلا النص القرآني ما أكسبها أهمية رغّبت العلماء في فهمها والسعي إلى بلوغ مقاصدها، ومن أبرز جهودهم في هذا الشأن كتاب (مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول) للعلّامة محمد باقر المجلسي (١١١١ه) الذي عقده لاستكناه معاني الأخبار الشريفة بناءً على مناقشات دلالية معمقة تستد في أغلبها إلى أسس لغوية وسياقية.

وهذا البحث يسلط الضوء على تمظهرات الأسس السياقية التي أسهمت في تكوين دلالات النصوص المشروحة في الكتاب، فخلص الباحث إلى نتائج مهمة منها: أنَّ العلّامة كان مدركًا لأثر السياق بنوعيه (اللفظي والحالي) في انتاج الدلالة وبلورتها، ما دعاه إلى أن يوليه عناية، ويعتمد عليه كثيرا على وفق مستويات وأنواع فصلناها في ثنايا البحث.

الكلمات المفتاحية : الدلالة ، النص ، الديني ، مرآة العقول ، السياق

Abstract

In the Islamic heritage, the words of the Prophet and his pure family (peace be upon them) and their news were the second source of religious legislation especially at the imamaya. The only text was in it the Qur'anic text that has gained the importance of the scholars' desire to understand it and seek to achieve its purposes. One of the most prominent efforts in this regard is the book ***"Mrat AL-euqul fi sharah akhbar AL-rusul"*** by ***Muhammad Baqir AL-Majlisi*** **(1111 A.H),** which he held to absorb the meanings of honest news based on deep-based discussions based mostly on linguistic and contextual bases.

This research highlights the implications of the contextual foundations that contributed to the formation of the meanings of the texts described in the book. the scientists concluded to important results one of which: That the scientists was aware of the impact of the context of the types (verbal and current) in the production of significance and crystallization, which invited him to pay attention, and rely heavily on the levels and types we separated in the folds of research.

Keywords: semantic, text, religious, mirror of minds, context

المقدمة

أما بعد، فقد تسابق علماء الحديث وتكاثروا على شرح كتاب (الكافي) لثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني(٣٢٩ه)، الذي ضمَّنه صفوة الأحاديث والأخبار المرويَّة عن النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين(عليهم السلام)، وهي نصوص قد استجمعت فيها خصال السمو الرفعة، فلا يتقدمها في الشرف نص ما خلا نص القرآن الكريم.

وعلى الرغم من الجهود اللغوية والدلالية الكبيرة التي بذلها شارحو (الكافي)، إلا أننا لا نجد لها صدى في دراسات الباحثين المحدثين، فرجونا أن نكون أول من يشق الطريق إلى إبراز مكانتها ومكنونها الدلالي، عبر معالجة دلالة السياق في أبرزها صيتًا، وأكبرها حجمًا، وألمعها مؤلفًا، أعني كتاب (مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول) للشيخ محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي الأصفهاني المشتهر بالعلامة المجلسي، المتوفى عام ١١١١هـ.

فما زال (مرآة العقول) متصدرًا قائمة شروح (الكافي) الطويلة، وإنَّما استحق هذه المرتبة بلحاظ مؤلفه ومادته، فأمَّا من جهة المؤلف فهو أكثر الشرَّاح شهرة وتأليفًا، وأمَّا مادة الشرح فلا تماثلها مواد الشروح الأخرى في حجمها وشمولها؛ حيث أودعه مؤلفة عصارة خبراته العقلية ومطالعاته العلمية، وكل شيء وجده يسهم في الكشف عن دلالة الأخبار، ويثري معرفة القارئ.

وقد انتخبنا الدلالة السياقية لبروزها في الشرح بوصفها دلالة مقصودة بذاتها أو معياراً حكَّمه الشارح في تقييم الدلالات الأخرى، فجاء هذا البحث للإسهام في تأكيد حقيقة سبق علمائنا على الغربيين والمحدثين في مجال الحفاوة بالسياق والاعتداد بدلالته.

توطئة:

توجَّه الدرس الدلالي الحديث منذ منتصف القرن الماضي إلى الاهتمام بسياق النص بوصفه عنصرا رئيساً يرشد إلى المعنى المراد بصورة صحيحة، حتى بات حاكمًا في أنجع نظريات المعنى والمناهج التي تعالجه، ما حمل اللغوي ستيفن أولمان على القول: ((إنَّ نظرية السياق ــ إذا طُبِقت بحكمة ــ تمثل حجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن))[1]؛ وذلك لسعة مفهوم مصطلح السياق (context) في الدلالة الحديثة، حيث إنَّه لا يشتمل

على((الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل والقطعة كلها، والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل ــ بوجه من الوجوه ــ كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة))[٢]، وبعدُ، فلا يأمن الشطط من يحاول تحديد المعنى بمعزل عن السياق؛ لما بينهما من علاقة وطيدة.

ولم يكن علماؤنا القدامى ــ من مفسرين وشرَّاح ولغويين وأصوليين وبلاغيين ونقاد وغيرهم ــ غافلين عن السياق ودلالته، فمدوناتهم التي وصلتنا تشهد برعايتهم للجوانب السياقية ومناقشتها بما يضاهي مناقشات الغربيين والمحدثين[٣]؛ إذ إنَّ من أهم الأمور التي تكشف عن المعنى المقصود عندهم ((دلالة السياق، فإنَّها ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو ﴿أي السياق﴾ من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غَلطَ في نظيره وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى:﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩]، كيف تجد سياقه يدلُّ على أنَّه الذليل الحقير))[٤]، وحسبنا هذا النص دليلًا على أهمية الدلالة السياقية لدى القدماء.

وفي (مرآة العقول) ركن المجلسي كثيراً إلى السياق في تحديد معاني الأخبار، ما يعكس اعتداده بدلالته وأخذه بها، ويمكن لنا استعراض طائفة من ذلك منتظمة في نوعين رئيسين، هما:

أولاً: السياق اللفظي:

وهو كل ما يقع ضمن إطار بنية النص اللغوية، من تسلسل العناصر وتناسقها، وتقارن المفردات وتقابلها، وتتالي الوحدات وترتيبها، وجميع القرائن التي تُستفاد من لغة النص ومجموع ألفاظه[٥].

ويعدُّ هذا النوع من السياق ضابطًا مهمًا للمعنى فضلًا عن دلالته عليه، وذلك عبر تشكيله لمعالم النسق النصي، والتي من شأنها تقليص تسرب احتمالات مغايرة لقصدية منتج النص، فالسياق اللفظي يضمُّ القرائن المستفادة من التلازمات الاسلوبية للنص، والتي تُمكِّن المتلقي من الوصول الى المعنى الأرجح[٦].

وقد ارتكز المجلسي على معطيات سياقية من أجل الكشف عن معاني نصوص (الكافي) ومقاصدها، وجاء توظيفه لهذه المعطيات كاشفًا عن ثلاثة أنواع من السياق اللفظي، هي:

١. السياق الصغير:

وهو السياق القريب الذي يُقتصر فيه على ملاحظة ألفاظ الوحدة النصية الصغرى، كأن يُنظر إلى ما يقع ضمن السورة القرآنية الواحدة أو بعض آياتها، من دون مقارنتها بما ورد في آيات السور الأخرى، وكذلك فيما لو رُوعي سياق خبر معين بمعزل عن الأخبار الأخرى، فالسياق الصغير هو الذي ((يُعنى أسلوبيًا بدراسة الكيفيات التي تتفاعل بها الكلمات، فيبرز بعضها بعضًا، ويؤثِّر بعضها في بعض))[٧] ضمن إطار نصِّي صغير نسبيًا.

وقد اشتمل (مرآة العقول) على عدد من المصطلحات التي تشير بوضوح إلى مفهوم السياق الصغير، نذكر منها: ((سياق الآية))[٨]، و((سياق الخبر))[٩]، و((سياق الحديث))[١٠]، ((سياق كلامه))[١١]، وغيرها، ولم يعتمد المجلسي (سياق السورة)؛ لأنَّه لا يسلِّم بتوقيف ترتيب الآيات في السورة الواحدة، ومن ثَمَّ لا يُسلِّم بحجيته، وقد أفصح عن رأيه هذا في معرض مناقشته قول المخالف: إنَّ سياق الآيات في سورة الأحزاب يدلُّ على كون المقصود بـ(أهل البيت) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣]، زوجات النبي ﷺ، وليس مَن اجتمع معه تحت الكساء في الحادثة المعروفة[١٢] كما يذهب الإمامية[١٣].

فكان مما أورد العلَّامة على هذا القول أنَّه قال: ((قد صرَّحوا ﴿يعني المفسرين﴾ في مواضع عديدة في سورة مكيَّة أنَّ آية أو آيتين أو أكثر من بينها مدنيَّة وبالعكس، وإذا لم يكن ترتيب الآيات على وفق نزولها لم يتم لهم الاستدلال بنظم القرآن على نزولها في شأن الزوجات، مع أنَّ النظر والسياق لو كانا حجتين فإنما يكونان حجتين لو بقي الكلام على أسلوبه السابق))[١٤]، ثُمَّ مضى مؤكدًا رؤيته عبر موازنة لغوية عقدها بين أية التطهير وما حواليها من الآيات التي تخاطب نساء النبي ﷺ، إذ يرى أنَّ ((التغيير فيها لفظًا ومعنى ظاهر، أمَّا لفظا فتذكير الضمير، وأمَّا معنى فلأنَّ مخاطبة الزوجات

مشوبة بالمعاتبة والتأنيب والتهديد، ومخاطبة أهل البيت(عليهم السلام) محلاة بأنواع التلطُّف والمبالغة في الإكرام، ولا يخفى بعد إمعان النظر المباينة التامة في السياق بينها وبين ما قبلها وما بعدها على ذوي الأفهام))[١٥]، أي ثمَّة مفارقة اسلوبية تبدد وحدة السياق في مجموع الآيات، ويمثِّل هذه المفارقة تحولان أسلوبيان:

الأول: تحوُّل ضمير المخاطبين من التأنيث في آيات الزوجات إلى التذكير في آية التطهير، ما يدلُّ على اختلاف المخاطبين في الموضعين، وتغاير السياقين فيهما.

الثاني: تحوُّل الغرض الخطابي من المعاتبة والتهديد في آيات الزوجات إلى المدح والإكرام في آية التطهير، ومثل هذا مستكره في عرف البلاغيين فيما لو كان المخاطب واحداً في الجميع.

ومما تجدر الإشارة إليه ههنا جملة أمور يُلفت الباحث النظر إليها:

الأمر الأول: تذكر المصادر أنَّ مصحف الإمام علي(عليه السلام) المدخر عند ولده المهدي(عليه السلام)[١٦]، يلتزم ترتيب السور وآياتها بحسب تاريخ نزولها[١٧]، ما يعني سلامة السياق السُّوَري واستقامته فيه بلا جدال.

الأمر الثاني: لا ينبغي أن يُعدَّ التغيير في سياق الآيات وترتيبها في السورة ضرباً من التحريف الذي حُفظ منه القرآن، إذ يمكن عدُّه من المسائل القرآنية التي أُعطي فيها المسلمون شيئًا من التصرُّف فيها وتغييرها، نحو: رسم المصحف[١٨]، وترتيب السور فيه[١٩]، وكيفية تلاوة الآيات ترتيلًا أو تجويداً.

الأمر الثالث: لم يدَّعِ المجلسي فيما أورده وقوع التغيير السياقي في جميع سور المصحف، فإن المرء يكاد يقطع بصحة السياق في عدد منها عن طريق بعض القرائن والأمارات، كالتزام فواصل آيات السورة بسجعات موحدة، أو وحدة الموضوع الذي تعالجه، أو غير ذلك، وعليه فإنَّ السور القصار تكون الأقرب للوثوق بسياقاتها؛ فهي فضلًا عن يسر ملاحظة القرائن فيها، أدعى بحفظ السياق لكثرة ترديدها في الصلوات وغيرها، وسهولة قراءتها عن ظهر القلب[٢٠].

ومن الشواهد الدلالية التي ارتكن فيها العلَّامة إلى السياق الصغير، ما ذكره في دلالة (النَّفاس) وهو يشرح قول أمير المؤمنين(عليه السلام): ((**خيرُ تمورِكم البرني، فأطعموه نساءكم في نفاسِهنّ تخرج أولادُكم زَكيًا حَليمًا**))[٢١]، حيث قال: ((النَّفاس في اللغة:

ولاد المرأة، فيمكن أن يكون المراد قبل الولادة قريبًا منها بقرينة قوله عليه السلام: "يخرج الولد"))[٢٢]، بمعنى أنَّ لفظ (نَفاس) في الحديث قد تحرك عن معناه المعجمي الذي هو ((وِلادُ المرأة إذا وضَعَتْ))[٢٣]، إلى معنى آخر هو: أخريات مدة الحمل واقتراب الولاد، دلَّ عليه السياق متمثلا بجملة (تخرج أولادكم)، فإنَّ الخروج يقتضي أنَّ الولادة لم تقع بعد، وإلا فلا يكون له معنى.

وربَّما استدل بالسياق في الترجيح بين الوجوه الدلالية المحتملة، كما صَنع في شرح قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((**طاعةُ علي عليه السلام ذلٌّ، ومعصيته كفرٌ بالله، قيل: يا رسول الله وكيف يكون طاعة علي عليه السلام ذلًا ومعصيته كفرًا بالله؟ قال: إنَّ عليًا عليه السلام يحملكم على الحق، فإن أطعتموه ذللتم، وإن عصيتموه كفرتم بالله عز وجل**))[٢٤] فإنَّه يحتمل في تفسير الذلِّ كونه ((في الدنيا وعند الناس، لأنَّ طاعته عليه السلام تُوجب ترك الدنيا وزينتها، والحكم للضعفاء على الأقوياء والرضا بتسوية القسمة بين الشريف والوضيع، والقناعة بالقليل من الحلال، والتواضع وترك التكبر والترفع، وكل ذلك مما يوجب الذل عند الناس... وقيل: المراد بالذلِّ التذلل لله تعالى والانقياد له والتواضع عنده بقبول أوامره والانتهاء عند نواهيه، وترك التكبر والترفع من الذل بالكسر، والأول أظهر كما ينادي به سياق الخبر))[٢٥]، إذ المتبادر من اطلاق الذلِّ أنَّه بين الناس، ولذلك اندفع السامعون متعجبين إلى سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن سبب هذا الذلِّ وجهته، فلو أنَّهم فهموا منه معنى الخضوع والتذلل لله لما احتاجوا إلى السؤال؛ لأنَّه سيكون بديهيًا.

٢. السياق الكبير:

وهو ما يُعرف عند المفسرين والأصوليين بالقرينة اللفظية المنفصلة[٢٦]، وفيه تنضم سياقات النصوص الصغيرة مشكِّلة سياق النص الكبير الجامع لتلك النصوص، ومن أمثلته ملاحظة السياق الكلي للقرآن الكريم، وسياق الديوان الشعري بجميع قصائده أو بعضها، وكذا سياق المجموعة القصصية.

ويتمثل السياق الكبير في (الكافي) بالنسق الدلالي الذي يجمع رواياته وأخباره، حيث استعان المجلسي في مواضع عدة بما تفيده الأخبار السابقة واللاحقة للخبر المشروح؛ بغية الكشف عن بعض دلالاته، كما في الخبر الذي يسأل فيه أبو جعفر الباقر عليه السلام أحد أصحابه: ((**أيجيء أحدُكم إلى أخيه فيُدخل يدَهُ في كيسه فيأخذ حاجته فلا**

يدفعه؟ فقلتُ﴿الصحابي﴾: ما أعرف ذلك فينا، فقال أبو جعفر عليه السلام: فلا شيء إذن، قلت: فالهلاك إذن، فقال: إنّ القومَ لم يُعطوا أحلامهم بعد)) [٢٧] ، فقد جاء في شرحه: ((**"لم يُعطوا أحلامهم بعد**" أي لم يكمل عقولهم بعد، ويختلف التكليف باختلاف مراتب العقول، كما مرَّ: "**إنما يداق الله العباد** ﴿...﴾ **على قدر ما آتاهم من العقول**"[٢٨]. أو لم يتعلموا الآداب من الأئمة (عليهم السلام) بعد فهم معذورون؛ كما يشير إليه الأخبار السابقة واللاحقة، حيث لم يذكروا الحقوق أولا معتذرين بأنّه يشكل عليكم العمل بها، فيومئ إلى أنّهم معذورون في الجملة مع عدم العلم))[٢٩]، فههنا وجهان يقترحهما العلّامة لتفسير عبارة الإمام عليه السلام، قد استمدهما من السياق اللفظي غير الخاص بالخبر نفسه، بل العام الشامل لأخبار (الكافي) المتشاركة في الموضوع، فالوجه الأول أتى به من خبر أورده الكليني في بدايات كتابه، واستدل على الوجه الثاني بسياق الأخبار المحيطة بالخبر في الباب نفسه، أعني (باب حق المؤمن على أخيه وأداء حقه)، إذ اشتمل على أخبار تدل صراحة على إشفاق الأئمة (عليهم السلام) على السائل عن حقوق المؤمنين؛ من حيث إنّه إذا قصَّر في أدائها يكون علمه بها حجة عليه، إذ سأل المُعلى بن خنيس(قبل١٣٣ه)[٣٠] الإمام الصادق عليه السلام: ((**ما حقُّ المسلم على المسلم؟ قال له: سبع حقوق واجبات، ما منهنّ حقٌّ إلا وهو عليه واجب، إن ضيّع منها شيئًا خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن لله فيه من نصيب، قلتُ له: جُعلتُ فداك وماهي؟ قال: يا مُعلى، إني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل...**))[٣١].

إنَّ مراعاة التوافق الموضوعي في السياق النصي الكبير ليست بدعًا معرفيًا في منظومة التحليل الدلالي الإسلامية؛ ولا سيما على مستوى تفسير القرآن الكريم، فقد شاع بين المفسرين قديمًا وحديثًا منهج أصيل يمثل المصداق الأجلى لهذه المراعاة ألا وهو منهج (تفسير القرآن بالقرآن)[٣٢]، أو كما يُسمِّيه المحدثون (التفسير الموضوعي)[٣٣].

وقد آمن المجلسي بنجاعة هذا المنهج في الكشف عن دلالة الآيات؛ فإنّه قد ألفى تمثلاته حاضرة في بعض أخبار أهل البيت(عليهم السلام)، كالخبر الذي يرويه أبو عبيدة الحذاء(قبل١٤٨ه)[٣٤]، قال: ((**سألتُ أبا جعفر﴿الباقر﴾ عليه السلام عن الاستطاعة وقول الناس، فقال وتلا هذه الآية:** ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[

هود:١١٨ـ١١٩]: يا أبا عبيدة الناس مختلفون في إصابة القول وكلهم هالك، قال﴿الراوي﴾: قلت: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾؟ قال: هم شيعتنا ولرحمته خلقهم، وهو قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ، يقول: لطاعة الإمام الرحمة التي يقول: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف:١٥٦]، يقول: علم الإمام، ووسع علمه الذي هو من علمه كل شيء، هم شيعتنا، ثم قال: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[الأعراف:١٥٦]، يعني ولاية غير الإمام وطاعته...))[٣٥]، حيث قال العلَّامة في إثره: ((اعلم أنَّ هذه المضامين في الآيات ليست متصلة بالآيات السابقة...فجمع عليه السلام بين مضامين الآيات لبيان اتحاد مواردها، واتصال بعضها ببعض في المعنى))[٣٦] الذي مهَّد لتفسيرها موضوعيًا.

وعلى هذا الأساس بنى معالجاته الدلالية لألفاظ بعض الآيات الواردة في أخبار (الكافي)، كما حدث عند تعرضه لدلالة لفظة (المشركات) في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾[البقرة:٢٢١]، ومحاولته حصر مصاديقها، أيدخل في ضمنها الكتابيات، أم تقتصر على غيرهن من الكافرات؟ فاستظهر الأول استنادا إلى السياق القرآني الكبير، إذ به ينكشف أنَّ ((أهل الكتاب أيضا مشركون؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[الصف:٩] ، ولا ريب في كراهة أهل الكتاب ذلك كالمشركين أو أشد))[٣٧]، فهاتان آيتان من سورتين أُخريين تدلان على كون الكتابيات يصدق عليهنَّ عنوان المشركات الوارد في الآية المراد بيانها.

٣. السياق الأكبر:

وفيه يتعدى النظرُ سياقَ الكتاب ــ فضلا عن القطعة والفقرة والجملة ــ إلى سياق مجموع النتاج المنسوب إلى منتج واحد، كأن تُلحظ في الدلالة القرآنية ما ورد في الكتب السماوية الأخرى (على فرض سلامتها من التحريف)، ومنه الأخذ بسياق جميع دواوين الشاعر، ونحو ذلك.

وقد أدّى إلمام المجلسي الواسع بأخبار أهل البيت(عليهم السلام) وأحاديثهم أن يعالجها بوصفها نصًا واحدًا يحكمه سياق لفظي واحد، فقد استعان في (مرآة العقول) على شرح أخبار (الكافي) بأخبار وردت في غيره من المتون الحديثية، بلا فرق بين حديث أحدهم(عليه السلام) عن حديث الآخر منهم، فإنّ حديثهم يصدر عن مصدر واحد، وينطوي على خصائص مشتركة، روي عن الصادق(عليه السلام) قوله: ((**حديثي حديثُ أبي، وحديثُ أبي حديثُ جدي، وحديثُ جدي حديثُ الحسين، وحديثُ الحسين حديثُ الحسن، وحديثُ الحسن حديثُ أمير المؤمنين** (عليه السلام) **وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله** (صلى الله عليه وآله وسلم))[٣٨]، ومن هذه المشاكلة الأسلوبية تشكلت ملامح السياق الأكبر لأخبارهم(عليهم السلام)، وهي ما تلمّسه العلّامة في نص الخطبة الطالوتية[٣٩] فاطمأن بصدوره عن الأمام علي (عليه السلام) مع أنّه ضعيف من جهة السند، حيث قال: ((ضعيف على مصطلح القوم، لكن بلاغة الكلام، وغرابة الأسلوب والنظام تأبى عن صدوره عن غير الإمام (عليه السلام))[٤٠]، فالراجح أنّه عنى بقوله: (الاسلوب والنظام)، السياق الأكبر؛ فإنّ الجميع يدل في بعض اطلاقاته على معنى التتابع والاستواء[٤١].

وإلى جانب (الاسلوب والنظام) دلّل على هذا النوع من السياق بعدد من التعبيرات، نحو: ((سياق سائر الأخبار))[٤٢] ((سياق الأخبار))[٤٣]، و((عرف الأخبار))[٤٤]، و((ظاهر جملة من أخبارنا))[٤٥]، و((المشهور في أخبارنا))[٤٦]، وغيرها.

إنّ ما ورد في سياق الأخبار الأكبر يعد رافدًا دلاليًا مهمًا في (مرآة العقول)، حيث ارتكزت عليه مناقشات معمّقة أفضت إلى فهم ما جاء في بعض الأخبار المشروحة، كالمروي عن الصادق (عليه السلام) قوله: ((**إنّ سليمان ورث داود، وإن محمدًا ورث سليمان، وإنّا ورثنا محمدًا، وإنّ عندنا علم التوراة والانجيل والزبور، وتبيان ما في الالواح، قال﴿الراوي﴾: قلت: إنّ هذا لهو العلم؟ قال: ليس هذا هو العلم، إن العلم الذي**

يحدث يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة))[٤٧]، فبلحاظ سياق الخبر الأكبر ((يرد ههنا إشكال، وهو أنَّه قد دلَّت الأخبار الكثيرة على أنَّ النبي ﷺ كان يعلم علم ما كان وما يكون وجميع الشرائع والأحكام، وأنَّه قد عَلَّمَ جميع ذلك أميرَ المؤمنين، وكذا عَلَّمَ أميرُ المؤمنين الحسن(عليهما السلام) جميع ذلك وهكذا، فأي شيء يبقى بعد ذلك حتى يحدث لهم بالليل والنهار))[٤٨]، فهذا الإشكال المفترض مرتكز على ما ورد في الأخبار الأخرى التي لا ينحصر ورودها بكتاب (الكافي)، ثُمَّ إنَّ المجلسي اهتدى إلى أقوى وجه يمكن به ردَّ الإشكال، بيد أنَّ هذا الوجه هو الآخر مستند إلى ما دلَّ عليه سياق الأخبار، قال في ضمن الردود: ((ما خطر بالبال ولعله أقوى الوجوه وهو أنه يلوح من فحاوي الأخبار الكثيرة أنهم(عليهم السلام) في جميع النشأة أي قبل حلول أرواحهم المطهرة في الأجساد المقدسة، وبعد حلولها فيها، وبعد مفارقتها الأبدان وعروجها إلى عالم القدس، لهم ترقِّيات في المعارف الربانية ودرجات الكمال...إذ لا غاية لمدارج عرفانه وحبه وقربه تعالى، وبين درجة الربوبية ودرجات العبودية منازل لا تحصى، فإذا عرفت ذلك فإنهم إذا تعلموا في بدو إمامتهم من الإمام السابق قدرا من العلوم والمعارف، فلا محالة هم لا يقفون في تلك المرتبة ويحصل لهم بسبب مزيد القرب والطاعات زوائد العلوم والحكم والترقيات...))[٤٩]، ومن هنا تبرز أهمية مراعاة دلالات الأخبار ذات الصلة في الكشف عن مفاد خبر ما وصحته، فإنَّ الانسجام المعنوي فيما بينها كفيل بتأمين وحدة معرفية تكاملية يشدُّ بعضها بعضا، فيتبيَّن الغامض منها والدخيل عليها.

ثانياً: السياق الحالي:

ويُقصد به الظروف والملابسات التي ترافق عملية إنتاج النص والتخاطب به، فيُلحظ كل من حال المنشئ، وحال المتلقي وتكوينهما الثقافي، وطبيعة العلاقة بينهما، والأحوال العامة ذات الصلة بالنص، كمناسبة صدوره وزمانه ومكانه والأوضاع السياسية والاجتماعية الاقتصادية آنذاك، فضلًا عن أثر النص في المتلقين واستجابتهم له، كالارتياح والتألم، والضحك والبكاء، وغير ذلك[٥٠].

ويرتبط مصطلح سياق الحال (context ofstuation) بعالمين بريطانيين هما: عالم الاجتماع مالينوفسكي(١٩٤٢م)، وعالم اللغة فيرث(١٩٦٠م)، فقد كانت بدايته عند أولهما في دراسته لبعض اللغات البدائية، فخلص إلى نتيجة مفادها أنَّه لا

غنى عن سياق الحال في معرفة معنى الكلام وألفاظه[٥١]، ثُمَّ تلقَّف فيرث منه ذلك، وطوَّره بما يناسب تخصصه، ليطلَّ علينا بعدها بنظرية دلالية مهمة تقضي بأنَّ المعنى هو حصيلة علاقة بين العناصر اللغوية وسياق الحال الذي وردت فيه[٥٢].

وكما في كل مرة يكون المحدثون مسبوقين بجهود علمائنا القدامى الذين خبروا مفهوم سياق الحال ووظيفته الدلالية وإن عبَّروا عنه بمصطلحات أخرى، كمصطلح (المقام) الذي تردد في كتبهم كثيرًا، حتى قال الدكتور تمام حسان مشيدًا بذلك: ((لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة (المقام) متقدمين ألف سنة تقريبًا على زمانهم؛ لأنَّ الاعتراف بفكرتي (المقام) و(المقال) باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة))[٥٣]، ولم تقتصر العناية بسياق الحال على البلاغيين بل شاطرهم فيها اللغويون والمفسرون والأصوليون وغيرهم، ولعل أقدم الإشارات لأثره في المعنى نصادفها في (كتاب سيبويه)، كقوله: ((أو رأيت رجلاً يسدد سهماً قبل القرطاس، فقلت: القرطاس والله، أي يصيبُ القرطاس. وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس))[٥٤]، فهو يشرح كيف يختلف تقدير الفعل في الجملة الواحدة تبعًا لتغير مقامها (سياق الحال).

أدرك المجلسي أهمية هذا النوع من السياق، فاحتفى به أيَّما حفاوة وهو يسبر معاني الأخبار التي شرحها في (مرآة العقول)، وقد يشهد لهذا كثرة ورود مصطلح (المقام) في الكتاب[٥٥]، فضلًا عن ورود مصطلحات أُخر تقرب من المصطلح الحديث وتشير إلى المفهوم نفسه، كـ((مقتضى الحال))[٥٦]، و((ظاهر الحال))[٥٧]، و((لسان الحال))[٥٨]، وغيرها.

وإذ تقدم الحديث على السياق اللفظي الذي يمثل ــ من جهة أخرى ــ سياق حال النص، فإنَّ إردافه هنا بسياق حال المنشئ(المتكلم)، ثُمَّ بسياق حال المتلقي(المخاطب)، يمنحنا شمولًا منهجيًا وإحاطة بسياق أطراف التواصل اللغوي، ثُمَّ نعزِّزه بمعالجة سياق الأحوال الخارجية التي تحيط بالأطراف جميعًا ضمن العملية التواصلية؛ عسى أن نخرج من ذلك بتصور وافٍ عن الدلالة السياقية في (مرآة العقول):

١. سياق حال المنشئ:

لحال المنشئ دخل في تحديد دلالة نصه، فإنَّ الحالات والانفعالات التي يحسُّها ويبديها لحظة النص قد يكون لها معطيات دلالية مهمة تؤثِّر في بيان المقصود وتحققه، وهذه حقيقة نلقى صداها في ثنايا الفقه الإسلامي، فقد روعيت في الإيقاعات والعقود الشرعية عند التلفظ بالصيغة، فإن قال الزوج لزوجته: "أنتِ طالق"، وكان ((وقع فيه سهوًا، أو نائمًا، أو غضبان، أو مكرهًا، فلا يقع))[٥٩] منه الطلاق؛ لأنَّه لم يقصده، دلَّ على ذلك حاله، وعليه يُفرَّغ قوله من محتواه الدلالي، فلا يتحقق الغرض منه في الواقع الفعلي.

ولأنَّ أحاديث الأئمة(عليهم السلام) وأخبارهم وصلتنا مكتوبة، فلا يسعنا الاطلاع على أحوالهم(عليهم السلام) عند صدورها عنهم، ما خلا بعض الإشارات التي حرص الرواة على نقلها عنهم؛ لارتباطها الوثيق بدلالة الخبر، كما في خبر يرويه الإمام الصادق عليه السلام أنَّ رجلًا منقَّبًا صادف أباه الباقر عليه السلام في الكعبة وسأله عن ((**العلم الذي ليس فيه اختلاف، مَن يعلمه؟ قال** ﴿الباقر عليه السلام﴾: **أمَّا جملة العلم فعند الله(جل ذكره)، وأمَّا ما لا بُدَّ للعباد فعند الاوصياء... فقال: صدقتَ يا ابن رسول الله سآتيك بمسألة صعبة، أخبرني عن هذا العلم ما له لا يظهر كما كان يظهر مع رسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال** ﴿الصادق عليه السلام﴾: **فضحك أبي عليه السلام وقال: أبى الله عز وجل أن يُطلع على علمه إلا ممتحنًا للإيمان به...**))[٦٠]، فإخبارنا بأنَّه عليه السلام قد ضحك، يضع أيدينا على طرف من سياق حاله عند الإجابة، ولهذا السياق دلالة يلتمسها المجلسي قائلا: ((لعل ضحكه عليه السلام كان لهذا النوع من السؤال الذي ظاهره الامتحان تجاهلًا مع علمه بأنَّه عارف بحاله، أو لعدِّه المسألة صعبة وليست عنده عليه السلام كذلك))[٦١]، فهذان وجهان يرجو الشارح بهما الوصول إلى المغزى من ضحكه عليه السلام، وقد يرد على أولهما أنَّ تجاهل الرجل كان من أول مسألة؛ إذ قال في آخر الخبر: ((**ما سألتُك عن أمرك وبي منه جهالة، غير أني أحببت أن يكون هذا الحديث قوة لأصحابك**))[٦٢]، والمفروض أنَّ الباقر عليه السلام كان عارفًا بما يضمره منذ البداية، فلماذا خصَّ جواب هذا السؤال بالضحك، مع أنَّ جميع الأسئلة كان ظاهرها الامتحان، والسائل فيها يعلم أنَّ الإمام عليه السلام عارف بحاله؟

وبهذا يرجح الوجه الثاني؛ فإنَّه يرتكز على خصوصية تضمنها السؤال هي قوله: **سآتيك بمسألة صعبة**. ولكنها بدت له(عليه السلام) من المسائل السهلة، فضحك ــ وضحكه تبسم ــ من قوله، مما يدلُّ على علم الإمام(عليه السلام) الغزير، ومعرفته الواسعة، وأنَّه لا يعيى عن جواب أي سؤال.

٢. سياق حال المتلقي:

تسهم معرفة حال المتلقي في تكوين الفهم الصحيح للنص الذي تلقاه، فإنَّ مراعاة حاله واجبة على المنشئ الحكيم، قرر ذلك قديمًا البلاغيون حين شرطوا في كون الكلام بليغًا مطابقته لمقتضى حال المخاطب، إذ ((ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين...فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا))[٦٣]، فكلما كان الكلام ((أكثر مطابقة لحال المخاطب وتأثيرًا في نفسه، كانَ أعلَى حُسْنًا، وأرفَعَ منزلةً في مراتب البلاغة ودرجاتها، وتتنازلُ الدرجات وتنحطُّ بمقدار بُعْدِ الكلام عن مطابقة مقتضى حال المخاطب وضَعْفِ تأثيره في نفسه))[٦٤]، فيقصر حينها عن تأدية وظيفته.

والحق أنَّ رعاية حال المتلقي ــ قبل أن تكون مسألة بلاغية لغوية ــ هي مبدأ ديني التزمه الأنبياء والأوصياء وأُوجب على المبلغين التزامه في كلامهم مع الناس، قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): ((**إنّا مَعاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلمَ الناسَ على قدرِ عقولِهم**))[٦٥]، وقد أكَّد المجلسي في مواضع عدة من كتابه أنَّ الأئمة (عليهم السلام) أيضًا ((كانوا مكلفين بأن يكلموا الناس على قدر عقولهم))[٦٦]، وأنَّهم(عليهم السلام)((كانوا يتكلمون بعرف المخاطبين ومصطلحاتهم تقريبًا إلى إفهامهم))[٦٧]، وقد استثمر هذه النكتة في حلِّ بعض الاختلاف البادي فيما بين أحاديثهم، مثال ذلك الاختلاف في تفسير قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ** ﴾[**الحج:٢٩**]، فإنَّ مَن يختبر أخبارهم(عليهم السلام) تخبره بثلاثة تفسيرات مختلفة لمعنى قضاء التفث في الآية، قد ورد كل واحد منها في بعض الأخبار، وهي:

الأول: أنَّ المراد به حلق شعر الرأس والشارب، وقصُّ الأظافر، وما أشبه.

الثاني: أنَّه ترك الكلام القبيح في الإحرام، والتكلم بطيب الكلام.

الثالث: أنَّه لقاء الإمام والاجتماع به في الحج[٦٨].

وسبيل الجمع بين هذه التفسيرات وتصحيحها كلها يكون بما ذهب إليه العلامة، إذ قال: ((فُسِّر ﴿التفث﴾ في كل خبر ببعض معانيه على وفق أفهام المخاطبين ومناسبة أحوالهم))[٦٩]، فإنَّ الحكمة تقتضي أن يُلقى إلى كل طبقة من المتلقين ما يناسبها من معنى ما دامت جميع المعاني تنتمي إلى المراد الإلهي إجمالًا.

ومن الشواهد التي توقف فيها تحديد المعنى على معرفة حال متلقي الخطاب ومعتقده، ما ذكره المجلسي تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[البقرة:٤٤]، حيث قال: ((المراد بالكتاب القرآن على تقدير أن يكون الخطاب لطائفة من المسلمين...مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[الصف:٢]، أو التوراة على تقدير أن يكون الخطاب لأحبار اليهود، فإنَّ الوعيد المذكور موجود في التوراة أيضا كما قيل))[٧٠]، أي إنَّ دلالة (الكتاب) في الآية تتأتى من سياق حال المخاطب بها، وتتوجه بحسب ما يُنبئ به.

٣. سياق الأحوال الخارجية:

يُطلق بعض الباحثين على سياق الحال مصطلح (السياق الخارجي)[٧١]، يشيرون بذلك إلى خروجه عن النسق اللفظي ضمن إطار النص، أمَّا مقصودنا بالأحوال الخارجية فهو الأمور الخارجة عن أطراف عملية التواصل اللغوي (النص، المنشئ، المتلقي)، غير أنَّها ذات صلة بالعملية برمتها، إذ تُعدُّ محيطها العام الذي تجري فيه مجرياتها، وما لذلك من أثر بالغ في الدلالة.

ومن الصعوبة بمكان حصر عناصر سياق هذه الأحوال بتفاصيلها، فنكتفي بالقول إنَّها تمثل كل ما يمكن تصوره من أوضاع وأحداث وملابسات حضرت في زمان إنشاء النص ومكانه، ولها ارتباط بمضمونه.

ومع هذه الكثرة والتشعب في الأحوال الخارجية، نركز جهودنا في تسليط الضوء على حالين منها نحسبهما الألمع في (مرآة العقول)، أحدهما: حال العرف اللغوي السائد

في عصر الأئمة(عليهم السلام)، والآخر: حال التقية التي انبثقت من الوقائع السياسية والأجتماعية آنذاك، وفيما يأتي تفصيل القول فيهما:

أ. العرف اللغوي:

وهو ما تعارفت عليه الجماعة اللغوية وشاع في كلامها، فيضمّ بذلك ((العادات التعبيرية التي جرت على ألسنة العرب واستعملوها على مقتضى ذوقهم وسليقتهم))[٧٢]، ويتأتى الاستشعار بأهمية ذلك عبر القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾[**إبراهيم:٤**]، إشارة إلى مراعاة الأعراف اللغوية في ارسال الرسل وتبليغ الرسالات، وعليه لا بُدَّ من أخذها بالنظر في التحليل الدلالي للنص الديني.

وقد ارتكن المجلسي إلى العرف اللغوي في شرحه ما رُوي عن الباقر(عليه السلام) أنَّ ((**الذنوب كلها شديدة وأشدها ما نبت عليه اللحم والدم**))[٧٣]، فإنَّه استظهر أن يكون المراد بـ(**ما نبت عليه اللحم والدم**) ((ذنبا أصرَّ وداوم ﴿العبد﴾ عليه مدةً نَبتَ فيها اللحم والعظم، وإطلاق هذه العبارة في الدوام والاستمرار شائع في عرف العرب))[٧٤]، العرب))[٧٤]، فهو يستدل على الدلالة التي يرتئيها في العبارة بما شاع في العرف اللغوي للعرب في تلك الأزمان.

ولم يقتصر الأمر على الأخبار، فقد إتكأ العلَّامة على معالم هذا العرف في فَهمِ بعض أسرار التعبير القرآني أيضًا؛ إذ إنَّ ((لغة القرآن الكريم تستمد مرجعيتها من اللسان العربي بصفة عامة، ومن إطاره التداولي التاريخي في جزيرة العرب قبل الإسلام بصفة خاصة))[٧٥]، وكان من الآيات التي رصد في تعبيرها تماشيًا عرفيًا قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾[**لقمان:١٥**]، فإنَّه تلمس في استعمال ضمير المثنى دلالة هامشية على منزلة الوالدين وقربهما إلى ابنهما المخاطب بالآية، وما في ذلك من تأكيد وترغيب على برهما وطاعتهما ورعايتهما[٧٦]، وإنَّما استمد هذه الدلالة من العرف اللغوي ((فإنَّ ضمير التثنية للرفيقين المصاحبين مطلقًا، كما هو عادة العرب في محاوراتهم نحو: **قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكرَى حبيبٍ ومنزِلِ**))[٧٧]

وكأنَّ القرآن يقصد بيان شدة صلة الوالدين بولدهما عبر محاكاة ما اعتادت عليه الأذهان العربية من تصور علاقة بين إطلاق ضمير الاثنين والرفيقين الملازمين لرفيقهما في أسفاره وأخطاره، فليزم أن يرعى الولد والديه كما يرعى الرفيق رفيقه، بل أشد لبواعث أخرى.

ب. التقية:

وهي حالة فُرضت على واقع الشيعة نتيجة ما تعرضوا إليه وعانوه من اضطهاد سياسي وديني، وتعني ((كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، ومكاتمة المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين والدنيا))(٧٨)، فهي كما يقول المجلسي: ((إنَّما تكون لدفع ضرر لا لجلب نفع...ويشترط فيها عدم التأدي إلى الفساد في الدين كقتل نبي أو إمام أو اضمحلال الدين بالكلية))(٧٩)، وكان قد أورد لها تعريفًا في (مرآة العقول) يقضي أنَّها ((مجاملة الناس بما يعرفون وترك ما ينكرون))(٨٠)؛ دفعًا لأذى محتمل منهم، ثُمَّ حشد الأدلة على مشروعيتها، وبسط القول في أنواعها وتفصيلاتها(٨١) بما لا يسعنا ذكره ههنا لطوله وابتعاده عن صلب بحثنا وموضوعه.

لم تقف عناية المجلسي بالتقية عند بيان مفهومها والتنظير لها، بل إنَّه أفاد منها وطبَّقها في شرح مجموعة من الأحاديث المشكلة، فما أن يثبت عنده أنَّ حديثا صدر في حال تقية حتى يعالجه على وفقها فينتج عن ذلك أحد أمرين:

الأول: تأويل الدلالة:

ويكون بصرف لفظ الحديث عن ظاهره؛ وذلك لمعرفتنا أنَّ الأئمة(عليهم السلام) وشيعتهم كانوا يعمدون في حديثهم إلى التورية والمجاز والكناية ـــ ما أمكنهم ـــ عندما تحلُّ التقية والخوف، كما في خبر يُروى عن الصادق(عليه السلام) حين سأله رجلان من الزيدية(٨٢): ((**أفيكم إمام مفترض الطاعة؟ فقال(عليه السلام): لا، فقالا له: قد أخبرَنا عَنكَ الثقاتُ أنَّك تفتي وتُقرُّ وتقول به...فغضب أبو عبدالله (عليه السلام) فقال: ما أمرتُهم بهذا فلمَّا رأيَا الغضبَ في وجهِهِ خرجا**))(٨٣)، فإنَّه لَمَّا أحسَّ الإمام(عليه السلام) منهما الشر، وأنَّهما يريدان من سؤالهما الوقيعة به وأصحابه، قال: "**لا**" ((تقيةً، ولعله أراد تورية: ليس فينا إمام لا بُدَّ له من الخروج بالسيف بزعمكم...﴿وقوله:﴾ "**ما أمرتُهم بهذا**" فيه أيضا تورية؛ لأنّه (عليه السلام) كان أمرهم بالتقية ولم يأمرهم بالإذاعة عند المخالفين، لكنَّ ظاهره يوهم إنكار أصل القول))(٨٤)،

إنَّ هذا التأويل ينطلق من قاعدة قررها الفقهاء مفادها تقديم التبهيم على مخالفة الواقع في التقية[٨٥]، أي أنَّ المؤمن لا يقول قولًا أو يفعل فعلًا يخالف الواقع تقية ما دام يتمكن ــ بلا ضرر ــ من إصابة الواقع ولو بإظهار خلافه بتورية أو نحوها.

الثاني: إبطال الدلالة:

وهو إجراء يركن إليه الشارح عندما لا يجد وجها لتأويل خبر التقية بما يوافق الواقع، فيقوم بإبطال دلالته واسقاطها، بمعنى أن يهمل ما يفيده الخبر لكونه صادراً في حال تقية، ومن ذلك ما استظهره المجلسي في الخبر الذي قيل فيه للصادق عليه السلام: ((**إنِّي رأيت بني هاشم يتختمون في أيمانهم، فقال عليه السلام: كان أبي يتختم في يساره وكان أفضلهم وأفقههم**))[٨٦] فيدلُّ على إنكاره الضمني لمن تختموا في أيمانهم بأنَّ التختم في اليسار من السُّنة التي كان يفعلها أبوه الباقر عليه السلام، غير أنَّ العلَّامة رفض هذه الدلالة وأبطلها قائلًا: ((الأظهر أنَّ التختم باليسار محمول على التقية، لما قد ورد في الروايات أنَّه من بدع بني أمية...واشتهر أنَّ عمرو بن العاص عند التحكيم سلَّها من يده اليمنى، وقال: خَلعتُ الخلافةَ من علي عليه السلام كخلعي خاتمي هذا من يميني، وجعلتها في معاوية كما جعلت هذا في يساري، فهذا هو السبب في ابتداع معاوية (لعنه الله) ذلك))[٨٧]، وعليه يُطرح الخبر ويبطل ما دلَّ عليه فلا يترتب عليه أثر في الاستنباط الشرعي والفتوى.

الخاتمة

خلُصَ البحث إلى نتائج أهمها:

١. شكَّل السياق بنوعيه (اللفظي، والحالي) رافداً مهما للدلالة في (مرآة العقول)، إذ اعتمد عليه المجلسي في مواضع كثيرة لبيان معاني الأخبار الشريفة ومقاصدها، ما يعكس اعتداده بدلالته وإدراكه لأهميته.
٢. لم يُسلِّم المجلسي بترتيب آيات السورة في المصحف؛ لكونه مخالفًا لترتيب نزولها، الأمر الذي جعله لا يعوِّل كثيرا على دلالة سياقها في الكشف عن المراد، على نحو ما أبان عنه في دلالة آية التطهير وأنَّ المقصود بها أصحاب الكساء عليهم السلام، لا أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن دلَّ عليهن سياق السورة.

٣. سبق المجلسي أساطين المدارس السياقية الحديثة في تحكيم الأعراف السائدة بين الجماعة اللغوية من أجل بلوغ الفهم الصحيح لكلام من ينتمي إليها أو يخاطب أفرادها.

٤. من الأحوال الخارجية التي حكَّم العلَّامة سياقها في استنباط الدلالة حال التقية التي عاشها الأئمة (عليهم السلام) وشيعتهم في تلك الأزمان، وتمثل الأثر الدلالي للتقية في إجراءين أعتمدهما الشارح في التعامل مع أخبارها، وهما:

أ- تأويل الدلالة بخلاف ظاهرها.

ب- إبطال الدلالة واسقاطها، وذلك عندما يتعذر تأويلها.

والحمد لله على ما أعان ووفَّق.

هوامش البحث

(١) دور الكلمة في اللغة: ٦١.

(٢) دور الكلمة في اللغة: ٥٧.

(٣) ينظر: دلالة السياق: ٥٩ــ١٦٣، وعلم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: ٢٦٣ــ٢٩٥.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٢/٢٠٠ــ٢٠١، وينظر: بدائع الفوائد: ٤/١٣١٤.

(٥) ينظر: المعنى خارج النص أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب: ٢٢.

(٦) ينظر: المعنى خارج النص: ٢٣.

(٧) ينظر: دلالة السياق: ٥٤.

(٨) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ٣/١٠٩، ٤/١٣١.

(٩) مرآة العقول: ٤/٢٧٥، ٥/٤٤٦.

(١٠) مرآة العقول: ٤/٤٤٤، ٥/٤٤٥.

(١١) مرآة العقول: ٩/١١٥.

(١٢) ((عن أم سلمة: أنَّ فاطمة جاءت بطعيم لها إلى أبيها وهو على منامة له، فقال: اذهبي فادعي ابْنَي وابن عمك، قالت: فجللهم...الكساء، ثُمَّ قال: اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي،

وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، قالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: أنتِ زوج النبي ﷺ وإلى...خير)). المعجم الكبير: ٥٥/٣.

(١٣) ينظر: مرآة العقول: ١٠٧/٣.

(١٤) مرآة العقول: ١٠٩/٣.

(١٥) مرآة العقول: ١٠٩/٣.

(١٦) روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال لرجل من القراء: ((**اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام القائم عليه السلام قرأ كتاب الله عز وجل على حدّه، وأخرج المصحف الذي كتبه علي عليه السلام. وقال: أخرجه علي عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه فقال لهم: هذا كتاب الله عز وجل كما أنزله الله على محمد ﷺ، وقد جمعتُهُ من اللوحين، فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن، لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبدًا، إنما كان عليّ أن اخبركم حين جمعتُهُ لتقرؤوه**)). الكافي (أصول الكافي، فروع الكافي، روضة الكافي): ٥٩٦/٢.

(١٧) ينظر: الانتصار للقرآن: ٢٧٨/١، والبرهان: ٢٥٩/١.

(١٨) ((يقول أبو بكر الباقلاني: وأما الكتابة، فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئًا، إذ لم يأخذ على كتّاب القرآن وخطّاط المصاحف رسمًا بعينه دون غيره، أوجبه عليهم وترك ما عداه... ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية. بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهُل، لأن رَسُول الله ﷺ كان يأمر برسمه، ولم يبين لهم وجهًا معينًا)). رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة: ٧٤.

(١٩) قال الزركشي: ((وأما ترتيب السور على ما هو عليه الآن فاختلف هل هو توقيف من النبي ﷺ، أو من فعل الصحابة، أو يفصل في ذلك؟ ثلاثة أقوال: مذهب جمهور العلماء منهم مالك والقاضي أبو بكر بن الطيب...إلى الثاني، وأنه ﷺ فوّض ذلك إلى أمته بعده)) البرهان: ٢٥٧/١.

(٢٠) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٧٠/٥ــ١٧١.

(٢١) الكافي: ٢٣/٦.

(٢٢) مرآة العقول: ٣١٦/١٧.

(٢٣) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): ٩٨٠/٣ (مادة: نفس).

(٢٤) الكافي: ٣٧٠/٢.

(٢٥) مرآة العقول: ٤٨/٩ـ٤٩.

(٢٦) ينظر: البرهان: ٢١٥/١، ودراسة المعنى عند الأصوليين: ٤١ـ٤٢.

(٢٧) الكافي: ١٨٠/٢.

(٢٨) الكافي: ٥٤/١.

(٢٩) مرآة العقول: ١١٢/٧.

(٣٠) هو أبو عبد الله الكوفي، مولى الصادق عليه السلام، روى عنه الحديث، وله كتاب في ذلك. ينظر: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة: ٢٥٨/١٩ـ٢٦٠.

(٣١) الكافي: ١٧٦/٢.

(٣٢) ينظر: البرهان: ١٧٥/٢.

(٣٣) ينظر: المدرسة القرآنية: ٢٣.

(٣٤) هو زياد بن عيسى، وقيل: زياد ابن رجاء، من أصحاب الصادقين (عليهما السلام) وروى عنهما. ينظر: أعيان الشيعة: ٤٣٠/١٠.

(٣٥) الكافي: ٤٩٨/١.

(٣٦) مرآة العقول: ٢٢٥/٤ـ٢٢٦.

(٣٧) مرآة العقول: ٤٥٤/١٦.

(٣٨) الكافي: ١٠٥/١.

(٣٩) وهي خطبة خطبها الأمام عليه السلام بالناس في المدينة بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وسُميت بالطالوتية لقوله فيها: ((**أما والله لو كان لي عِدّة أصحاب طالوت، أو عدة أهل بدر - وهم أعداؤكم - لضربتكم بالسيف حتى تؤولوا إلى الحق وتنيبوا للصدق، فكان أرتق للفتق وآخذ بالرفق**)). الكافي: ٣٢/٨.

(٤٠) مرآة العقول: ٢٠٦/٢٠.

(٤١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٦٢ـ٢٦٣، ودلالة السياق: ٤٠ـ٤١.

(٤٢) مرآة العقول: ٦٥/٤، ٤٤٢/٨.

(٤٣) مرآة العقول: ٢٧٠/١٩.

(٤٤) مرآة العقول: ٢٦٦/٣، ٥٨/٦.
(٤٥) مرآة العقول: ٣٨٤/٨.
(٤٦) مرآة العقول: ٤٨١/١٨.
(٤٧) الكافي: ٢٨١/١.
(٤٨) مرآة العقول: ٣٦٣/٢.
(٤٩) مرآة العقول: ٣٦٣/٢.
(٥٠) ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٣١١.
(٥١) ينظر: علم الدلالة: ٦١ـ٦٢، ودلالة السياق: ١٨٦.
(٥٢) ينظر: اللغة العربية في إطارها الاجتماعي: ٣٢، ودلالة السياق: ١٩١.
(٥٣) اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٣٧.
(٥٤) كتاب سيبويه: ٢٥٧/١.
(٥٥) بلغ عدد المرات التي ورد فيها (المقام) - معرفًا بـ(ال) ومن دونها - في (مرآة العقول) حوالي (٣٨٦) مرة بحسب الإحصاء الإلكتروني لها.
(٥٦) مرآة العقول: ٣٨٤/٨.
(٥٧) مرآة العقول: ٤٦٧/٢، ٣٨/٢١.
(٥٨) مرآة العقول: ٥٦/٧، ٢٧٣/٢٠.
(٥٩) مرآة العقول: ٣٨٦/١٧.
(٦٠) الكافي: ٢٩٩/١.
(٦١) مرآة العقول: ٤٠٩/٢.
(٦٢) الكافي: ٢٩٩/١ـ٣٠٠.
(٦٣) البيان والتبيين: ١٣٨.
(٦٤) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: ١٣٠.
(٦٥) الكافي: ٦٧/١.
(٦٦) مرآة العقول: ٩/٣، وينظر: ١٢٥/٢١.
(٦٧) مرآة العقول: ٤١٢/٥.
(٦٨) ينظر: الكافي: ٣٣٦/٤، ٥٠٥/٤، ٥٥٠/٤.

(٦٩) مرآة العقول: ٤١٩/١٤.

(٧٠) مرآة العقول: ٩٥/١.

(٧١) ينظر: الدلالة السياقية عند اللغويين:٧٦، والسياق وأثره الدلالي في دراسات الأصوليين:٢٣(أطروحة دكتوراه).

(٧٢) البحث الدلالي في تفسير القرآن الكريم لصدر المتألّهين الشيرازي المتوفى(١٠٥٠هـ): ١٧١(رسالة ماجستير).

(٧٣) الكافي: ٢٦٤/٢.

(٧٤) مرآة العقول: ٤٤٢/٧ـ٤٤٣.

(٧٥) الجانب الروحي في اللغة العربية: ٣٨.

(٧٦) ينظر: مرآة العقول: ٢١٢/٤.

(٧٧) مرآة العقول: ٢١٢/٤، وشطر البيت مطلع معلقة الشاعر الجاهلي امرئ القيس(٥٤٥م). ديوان امرئ القيس: ٨.

(٧٨) تصحيح الاعتقاد: ٢٠٨، وينظر: التقية: ٤٥.

(٧٩) مرآة العقول: ٨٧/٧.

(٨٠) مرآة العقول: ٢٤٠/٧.

(٨١) ينظر: مرآة العقول: ٢٤٠/٧ـ٢٤٢

(٨٢) الزيدية فرقة ينتمي إليها ((القائلون بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن والحسين وزيد بن علي(عليهم السلام) وبإمامة كل فاطمي دعا إلى نفسه وهو على ظاهر العدالة ومن أهل العلم والشجاعة، وكانت بيعته على تجريد السيف للجهاد)). أوائل المقالات في المذاهب والمختارات: ٣٩.

(٨٣) الكافي: ٢٨٨/١ـ٢٨٩.

(٨٤) مرآة العقول: ٣٨٦/٢ـ٣٨٧.

(٨٥) ينظر: التقية: ٥٧ـ٥٨.

(٨٦) الكافي: ٤٨٣/٦.

(٨٧) مرآة العقول: ٤٤٢/١٨ـ٤٤٣.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

١. أعيان الشيعة، محسن الأمين العاملي(١٣٧١ه)، تح: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٥، ١٤١٨ه - ١٩٩٨م.
٢. الانتصار للقرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني(٤٠٣ه)، تح: د. محمد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢ه – ٢٠٠١م.
٣. أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، محمد بن نعمان العكبري المشتهر بالشيخ المفيد(٤١٣ه)، تح: إبراهيم الأنصاري، مطبعة مهر، إيران، ط١، ١٤١٣ه.
٤. البحث الدلالي في تفسير القرآن الكريم لصدر المتألّهين الشيرازي المتوفى(١٠٥٠هـ)، خالد حويّر الركابي، رسالة ماجستير، إشراف: د. علي كاظم المَشري، كلية الآداب، جامعة القادسية، ١٤٢٩ه – ٢٠٠٨م.
٥. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر الزرعي المشتهر بابن القيم الجوزية(٧٥١ه)، تح: علي بن محمد العمران، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، د.ت.
٦. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي(٧٩٤ه)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٣، ١٤٠٤ه – ١٩٨٤م.
٧. البلاغة العربية - أسسها، وعلومها، وفنونها، وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد -، عبد الرحمن حسن الميداني، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٦ه – ١٩٩٦م.
٨. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ(٢٥٥ه)، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٣٨٠ه – ١٩٦٠م.
٩. تصحيح الاعتقاد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري المشتهر بالشيخ المفيد(٤١٣ه)، تح: مركز الثقافة الجعفرية للبحوث والدراسات، مطبعة بديدرنک، طهران، ط١، ١٣٨٨ه.ش.
١٠. التقية، مرتضى محمد أمين الأنصاري(١٢٨٢ه)، تح: فارس الحسون، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣ه – ١٩٩٢م.
١١. الجانب الروحي في اللغة العربية، د. حسن منديل العكيلي، دار المغرب، بغداد، العراق، ١٤٢٥ه - ٢٠٠٤م.

١٢. دراسة المعنى عند الأصوليين، د. طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية، الإسكندرية، ١٤٠٣ه - ١٩٨٣م.
١٣. دلالة السياق ، د. ردة الله بن ردة الطلحي، مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٣ه.
١٤. الدلالة السياقية عند اللغويين، د. عواطف كنوش المصطفى، دار السياب، لندن، ط١، ٢٠٠٧م.
١٥. دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، تر: كمال بشر، مكتبة الشباب، النيرة، سوريا، ١٩٧٥م.
١٦. ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٥، ١٩٩٠م.
١٧. رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، د. محمد شعبان إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤٣٢ه – ٢٠١١م.
١٨. السياق وأثره الدلالي في دراسات الأصوليين، انجيرس طعمة يوسف، أطروحة دكتوراه، إشراف: د. عبد الواحد زيارة اسكندر، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م.
١٩. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، إسماعيل بن حماد الجوهري(٣٩٣ه)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.
٢٠. علم الدلالة، أف . آر . بالمر، تر: مجيد عبد الحليم الماشطة، مطبعة العمال المركزية، بغداد، العراق، ١٩٨٥م.
٢١. علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، د. هادي نهر، دار الأمل، أربد، الأردن، ط١، ١٤٢٧ه – ٢٠٠٧م.
٢٢. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ت.
٢٣. الكافي (أصول الكافي، فروع الكافي، روضة الكافي)، محمد بن يعقوب الكليني(٣٢٨ه)، تص: محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف، بيروت، لبنان، ١٤١٩ه – ١٩٩٨م.

٢٤. كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر(١٨٠ه)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨ه - ١٩٨٨م.
٢٥. اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، مصطفى لطفي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٦م.
٢٦. اللغة العربية معناها ومبناها، ، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط٤، ١٤٢٥ه - ٢٠٠٤م.
٢٧. المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر(١٤٠٠م)، تح: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للأمام الشهيد الصدر، مطبعة شريعة، قم، إيران، ط٥، ١٤٣٥ه.
٢٨. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، محمد باقر المجلسي(١١١١هـ)، تح: مصطفى صبحي الخضر، شركة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
٢٩. معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، أبو القاسم الخوئي(١٤١٣ه)، د.مط، ط٥، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٣٠. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني(٣٦٠هـ)، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٣١. المعنى خارج النص - أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب -، فاطمة الشيدي، دار نينوى، دمشق، ٢٠١١م.
٣٢. الميزان في تفسير القرآن، ، محمد حسين الطباطبائي(١٤٠٢هـ)، تص: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.